المحور الثالث والرابع من السورة

أولا المحور الثالث:: جحود الإنسان وكفره بنعم ربه وإعراضه عن هدايته ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: 17-23].

سبب النزول:

قوله تعالى: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)} سبب نزوله أخرجه ابن المنذر عن عكرمة قال: نزل في عتبة بن أبي لهب حين قال: كفرنا برب النجم[1].

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما وَصف الْقُرْآن بِأَنَّهُ تَذْكِرَةٌ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَتَذَكَّرَ، وكَانَ أَكْبَرُ دَوَاعِيهِمْ إِلَى التَّكْذِيبِ بِالْقُرْآنِ أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنِ الْبَعْثِ وَطَالَبَهُمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ كَانَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى وُقُوعِ الْبَعْثِ أَهَمَّ مَا يُعْتَنَى بِهِ فِي هَذَا التَّذْكِيرِ[2]

غريب الألفاظ الواردة في الآيات:

{قُتِلَ الْإِنسَانُ} : وهذا دعاءٌ عَلَيْهِ وَالْقَتْلُ أَعْظَمُ شَدَائِدِ الدُّنْيَا؛ وقيل: معناه لعن. رَوَاهُ الضَّحَّاكُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَأَبُو مَالِكٍ.

وقيل أن من فسره ب"لعن" إنما هو تفسير بالمعنى لأنه من لازم ذلك لعنُه وطردُه من رحمة الله[3].

وَالدُّعَاءُ بِالسُّوءِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّحْقِيرِ وَالتَّهْدِيدِ لِظُهُورِ أَنَّ حَقِيقَةَ الدُّعَاءِ لَا تُنَاسِبُ الْإِلَهِيَّةَ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ النَّاسُ بِالدُّعَاءِ[4].

ويَحْسُنُ الوقفُ في هذه الجملة على «الإنسان»، والاستئناف بما بعدها، لبيان المعنى فيهما[5].

{**الإنسان**} من المراد به؟ قال مجاهد: «ما كان في القرآن (قُتل الإنسان) أو فُعل بالإنسان، فإنما عنى به الكافر». وقال الطاهر بن عاشور: « المرَاد بِهِ النَّاسُ الْمُشْرِكُونَ وهو الغالب في إطلاق لفظ الإنسان، في القرآن النازل بمكة؛ كقوله: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى} [العلق: 6]، {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ} [القيامة: 3] ...».

{مَا أَكْفَرَهُ} "ما" تعجبية أي مَا أَشَدَّ كُفْرَهُ[6] وَلَا أَعْجَبَ مِنْ كُفْرِ مَنْ أَلَّهُوا أَعْجَزَ الْمَوْجُودَاتِ مِنْ حِجَارَةٍ وَخَشَبٍ، أَوْ نَفَوْا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ رَبٌّ خَلَقَهُمْ

وقيل "ما" استفهامية أي مَا حَمَلَهُ عَلَى الْكُفْرِ[7].

{نطفة} : أصلها في اللغة الماء القليل وَغُلِبَ إِطْلَاقُها عَلَى الْمَاءِ الَّذِي مِنْهُ التَّنَاسُلُ أي المني[8]

{فقدره} أي: من تقدير كيفية خلقته جسديا وعملا فقدر سائر أعضائه، وحسنا ودميما، وقصيرا وطويلا، وشقيا وسعيدا كقوله تعالى {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً} [الْفرْقَان: 2].. وقيل: فقدره أي: فسواه، وقيل: فقدره أطوارا أي: من حال إلى حال[9] .

{السَّبِيلَ}: في اللغة الطَّرِيق؛ واختلف في ما المراد به هنا ؟

قيل: طريق خروجه من بطن أمه، وهو قول ابن عباس من طريق العوفي، وقتادة.

وقيل: طريق الحق والباطل، بيَّناه وأعلمناه، وهو قول مجاهد وابن أبي نجيح والحسن، نظير قوله تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: 3].

---

[1] تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن 31/ 117

[2] التحرير والتنوير 30/ 119 التحرير والتنوير 30/ 120

[3] تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار ص54 التحرير والتنوير 30/ 120

[4] التحرير والتنوير 30/ 120

[5] تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار ص54.

[6] تفسير غريب القرآن - الكواري (80/ 17، بترقيم الشاملة آليا)

[7] التحرير والتنوير 30/ 121.. تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار ص54. البحر المحيط في التفسير 10/ 409

[8] المفردات في غريب القرآن (ص: 811) التبيان في تفسير غريب القرآن (ص: 236) التحرير والتنوير 30/ 123

[9] تفسير القرطبي (19/ 218) التفسير البسيط 23/ 223 التحرير والتنوير 30/ 123

ورجَّح الطبري القول الأول بدلالة السياق، فقال: «وأوْلى التأويلين عندي بالصواب قول من قال: ثم الطريق، وهو خروجه من بطن أمه، يسَّره. وإنما قلنا ذلك أوْلى التأويلين بالصواب؛ لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر قبلَها وبعدها عن صفتِه خلقَه، وتدبيرِه جسمَه، وتصريفه إياه في الأحوال، فالأوْلى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعده»[1]. وَفِيهِ مُنَاسَبَةٌ لِقَوْلِهِ بَعْدَهُ: {ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ} فَـ{أَماتَهُ} مُقَابِلُ خَلَقَهُ وَ (أَقْبَرَهُ) مُقَابِلُ {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} لِأَنَّ الْإِقْبَارَ إِدْخَالٌ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ ضِدُّ خُرُوجِ الْمَوْلُودِ إِلَى الْأَرْضِ.

وهذا الاختلافُ سببه التواطؤ في لفظ السبيل، والله أعلم[2].

{يسره} وَالتَّيْسِيرُ: التَّسْهِيلُ[3].

{ثُمَّ أَمَاتَهُ} أي: قبض روحه عند تمام أجله المقدر المسمى[4]. والإماتة والتوفي تنسب تارة لله وتارة لملك الموت وتارة للرسل وتارة للمفعول وكل ذلك له توجيهه

{ فأقبره} أي: صيره مقبورا ولم يجعله للطير والسباع إكراما له[5] . أَيْ أَنَّ اللَّهَ سَبَّبَ لَهُ أَنْ يُقْبَرَ؛ كَمَا فِي قِصَّةِ دَفْنِ أَحَدِ ابْنَيْ آدَمَ أَخَاهُ بِإِلْهَامِ تَقْلِيدِهِ لِفِعْلِ غُرَابٍ[6].

{أَنْشَرَهُ}: أحياه بعد مماته ، يقال: أنشر الله الميت بمعنى: أحياه [7] . وأَنْشَرَهُ بَعَثَهُ مِنَ الْأَرْضِ؛ وَأَصْلُ النَّشْرِ إِخْرَاجُ الشَّيْءِ الْمُخَبَّأِ يُقَالُ: نَشَرَ الثَّوْبَ، إِذْ أَزَالَ طَيَّهُ، وَنَشَرَ الصَّحِيفَةَ، إِذَا فَتَحَهَا لِيَقْرَأَهَا.

وَأما الإنشار بِالْهَمْزِ فَهُوَ خَاصٌّ بِإِخْرَاجِ الْمَيِّتِ مِنَ الْأَرْضِ حَيًّا وَهُوَ الْبَعْثُ[8].

{كلا} ردع وزجر: عن ما يفهم من الكلام السابق / أو ما يفهم من الكلام اللاحق .

أو تكون بمعنى حقا أي حقًّا أن حال الإنسان لتدعو إلى العجب، فبعد أن رأى من عظيم الآيات، وجلائل الاثار ما يحرك الأنظار.

/ أو صلة للتوكيد.

{لما يقض ما أمره} اختلف في مرجع الضمير هنا:

فقيل يعود على الإنسان أي لم يقض الإنسان ما أمره به ربه من التأمل في دلائل قدرته، وأنه يستحق أن يقصده وحده دون سواه، ويمتثل أمره[9]؛ فيكون {يقض} من القضاء وَالْقَضَاءُ: فِعْلُ مَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ كَامِلًا لِأَنَّ أَصْلَ الْقَضَاءِ مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِتْمَامِ [10].

والقول الثاني: أنه يعود على الله تعالى أي: (كَلا لَمَّا يَقْضِ} الله تعالى {مَا أَمَرَهُ} كونا وقدرا [أَيْ] لَا يَفْعَلُهُ الْآنَ حَتَّى تَنْقَضِيَ الْمُدَّةُ، وَيَفْرَغَ الْقَدَرُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِمَّنْ كَتَبَ تَعَالَى لَهُ أَنْ سيُوجَدُ مِنْهُمْ، فَإِذَا تَنَاهَى ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْشَرَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ وَأَعَادَهُمْ كَمَا بَدَأَهُمْ[11].

<u>إعراب الآيات:</u>

و «ما أَكْفَرَهُ» قيل تعجبية وهو الأرجح وقيل استفهامية.

قوله: {ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ} : يجوزُ أَنْ يكونَ الضميرُ للإِنسانِ. والسبيل ظرفٌ، أي: يَسَّر للإِنسان الطريقَ، أي: طريق الخيرِ والشرِّ كقولِه: {وَهَدَيْنَاهُ النجدين} [البلد: 10] . وقال أبو البقاء: «ويجوز أن ينتصِبَ بأنه مفعولٌ ثانٍ ل يَسَّره، والهاء للإِنسان، أي: يَسَّره السبيلَ، أي: هداه له»

---

[1] التحرير والتنوير 30/ 123

[2] تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار ص55. التحرير والتنوير 30/ 123

[3] التحرير والتنوير 30/ 123

[4] تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن 31/ 130

[5] تفسير غريب القرآن - الكواري (80/ 20، بترقيم الشاملة آليا)

[6] التحرير والتنوير 30/ 124

[7] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (24/ 225)

[8] التحرير والتنوير 30/ 126

[9] تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن 31/ 132

[10] التحرير والتنوير 30/ 128

[11] تفسير ابن كثير - ت السلامة 8/ 323.

. ولا بُدَّ مِن تضمينِه معنى أَعْطى حتى يَنْصِبَ اثنين، أو يُحْذفُ حرفُ الجرِّ، أي: يَسَّره للسبيل[1].
ويجوزُ أَنْ يكون «السبيل» منصوباً على الاشتغال بفعلٍ مقدرٍ، والضميرُ له، تقديره: ثم يَسَّر السبيلَ يَسَّره، أي: سَهَّله للناسِ كقوله: {أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى} [طه: 50][2] ،
قوله: {ثم إذا شَآءَ أنشره} : مفعولُه محذوفٌ، أي: إذا شاءَ إنْشارَه أنشره[3].

بلاغة الآيات:

الدعاء بالقتل وارد على أسلوب كلام العرب، فهو ليس من قبيل دعاء من يعجز عن انتقام من يسؤوه. المقصود بإيراد ما هو في صورة الدعاء: الدلالة على سخطه العظيم، والتنبيه على أنه استحق أهوال العقوبات وأشنعها

التعجب في قوله {ما أكفره} قيل إنه ليس على حقيقته؛ لأنه تعالى منزه عن العجز والجهل، بل المقصود بإيراد صيغة التعجب الذم البليغ له من حيث ارتكابه أقبح القبائح. وقيل في تأويله أنه تعجيب لأهل الإيمان من كفره أي فلتعجوا منه[4].

والصحيح إن العجب نوعان: عجب بمعنى تعظيم قدر الشيء المتعجَّب منه وهذا هو المراد في حق الله تعالى أي تعظيم قدر ذنب الكفر وقبحه هنا.

وأما المعنى الثاني للتعجب فهو الاستنكار الناتج عن الجهل بالشيء فهذا محال في حق الله تعالى لأن الله تعالى لا يخفى عليه شيء.

تعريف لفظة (قتل الإنسان) للجنس فيفيد الاستغراق باعتبار كفر أغلب الناس. فَغَالِبُ النَّاسِ كَفَرُوا بِاللَّهِ مِنْ أَقْدَمِ عُصُورِ التَّارِيخِ.

وهذا يسمى العامَّ المرادَ به الخصوص، ويخرج المؤمن من ذلك بما دلت عليه النصوص الأخرى.

وفي الحديث الصحيح: أن الله يقول يقوم القيامة: «يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول له الله عز وجل: أخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. فيقول: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين» ،

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَعْرِيفُ الْإِنْسانُ تَعْرِيفَ الْعَهْدِ يُعَيِّنُهُ خَبَرُ سَبَبِ النُّزُولِ[5]

{ **قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**} : إن الجملة الأولى تدل على استحقاقهم أعظم أنواع العقاب عرفا، والثانية تنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات شرعا ولم يسمع ذلك قبل نزول القرآن[6].

(ما أكفره) تعليل لإنشاء الدعاء عليه دعاء التحقير والتهديد[7] .

{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}. استفهام على معنى التقرير على تفاهة الشيء الذي خلق الإنسان منه[8] .

قيل المراد التحقير أي: من نطفة قذرة أنشأه وأوجده، فمن كان أصله مثل هذا الشيء الحقير كيف يليق به التكبر والتجبر والكفران بحق المنعم الذي كسا ذلك الحقير بمثل هذه الصورة البهية وهذا تحقير له. قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين. وعن بعضهم: كيف تكبر الإنسان وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين الوقتين حمال عذرة

وقيل المراد مَفَادَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى إِبْطَالِ إِحَالَتِهِمُ الْبَعْثَ وَذَلِكَ الْإِنْكَارُ مِنْ أَكْبَرِ أُصُولِ كُفْرِهِمْ[9]..

وَجِيءَ فِي هَذَا الِاسْتِدْلَالِ بِصُورَةِ سُؤَالٍ وَجَوَابٍ لِلتَّشْوِيقِ إِلَى مَضْمُونِهِ[1]

---

[1] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 10/ 690
[2] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 10/ 690
[3] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 10/ 691
[4] تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن 31/ 128
[5] التحرير والتنوير 30/ 121 التحرير والتنوير 30/ 120التحرير والتنوير 30/ 121تفسير العثيمين: جزء عم ص64
[6] تفسير الألوسي = روح المعاني 15/ 246
[7] التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية (30/119- 121)
[8] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (5/ 438)
[9] تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن 31/ 129

وهذا عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ [ق: 15] وقوله { فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ فِي سُورَةِ الطَّارِقِ [5-8] [2]..

7{من نطفة} قدم الجار والمجرور في قوله : (من نطفة) للاهتمام بتقديم ما منه الخلق ، لما في تقديمه من التنبيه للاستدلال على عظيم حكمة الله تعالى إذ كوّن أبدع مخلوقٍ معروف من أهون شيء وهو النطفة [3] .

8- الكناية الرائقة في قوله {السبيل} كنَّى بالسبيل عن خروجه من فرج الأم [4] .

9- صيغة المضي في قوله : (أماته) مستعملة في حقيقته وهو موت من مات ، ومجازه وهو موت من سيموتون ، لأن موتهم في المستقبل محقق .

{ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ} في تَعليقِ الإنشارِ بمشيئتِه تعالَى إيذانٌ بأنَّ وقتَه غيرُ متعيّنٍ، بل هو تابعٌ لها .

يلاحظ في الآيات السابقة تكرُّر العطف بـ «الفاء»، و «ثم»، أما الأُولى: فللدلالة على تعاقُبِ الحَدَثَيْن، وسُرعة وجودِ الآخِر بعد الأول. وأما الثاني: فللدلالة على تراخٍ وبُعْدٍ بين الحدَثَين؛ فقوله تعالى: {مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ}، إشارة إلى أنَّ الأطوارَ المقدَّرة تعقُبُ حالَ النطفة، ثم قال: {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ}، وهذا إشارة إلى طول الزمان الذي يقرُّ فيه الجنين في البطن بعد التقدير، ثم قال: {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}، وهذا يدلُّ على تراخٍ بين خروجه من بطن أمه إلى موته، وهي فترة الحياة التي يعيشها، أما الفترة التي بين موتهِ ودفنِه فإنها يسيرة، ولذا جاء التعقيب بالفاء، ولمَّا كان الزمن بين الموت والبعث طويلاً، جاء التعقيب بحرف العطف «ثم»، والله أعلم[5].

(كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ) ولما حرف نفي جازم وجزم بلما للدلالة على أن العجب والكبر ما زالا يلازمان الإنسان حتى الساعة التي هو فيها[6]..

<u>المعنى الإجمالي للآيات:</u>

لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على عُلُوِّ القُرآنِ المكتوبِ، وجَلالةِ مِقدارِه، وعَظَمةِ آثارِه، وظُهورِ ذلك لِمَن تدَبَّرَه وتأمَّلَه حَقَّ تأمُّلِه؛ عَقَّبه بقَولِه ناعيًا على مَن لم يُقبِلْ بكُلِّيَّتِه عليه، داعيًا بأعظَمِ شدائدِ الدُّنيا -الَّتي هي القَتلُ- في صيغةِ الخَبَرِ؛ لأنَّه أبلَغُ

{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} (17.(أي: أُهلِكَ الإنسانُ، فما أشَدَّ كُفْرَه باللهِ الَّذي خَلَقَه!

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: 34]

{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} أي: ما الشَّيءُ الَّذي خَلَق اللهُ الإنسانَ منه ؟

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣)﴾ [عبس: 24-33]

{مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} أي: خَلَق اللهُ الإنسانَ مِن ماءٍ قَليلٍ -وهو المَنيُّ- فقدَّره في بَطْنِ أُمِّه أحوالًا وأطوارًا في الخَلْقِ؛ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى أنْ تَمَّ خَلْقُه، وهَيَّأه لِما يَصلُحُ له، ويَليقُ به مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 12-14]

---

[1] التحرير والتنوير 30/ 122

[2] التحرير والتنوير 30/ 122

[3] التحرير والتنوير ـ الطبعة التونسية (30/ 122)

[4] صفوة التفاسير (3/ 497)

[5] تفسير جزء عم للشيخ مساعد الطيار ص55

[6] إعراب القرآن وبيانه 10/ 385

وقال سُبحانَه :وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا] الفرقان: 2. [
وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال)) :إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّه أربعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا، فيُؤمَرُ بأَربَع كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ. ((
{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} أي: ثمَّ سهَّل اللهُ للإنسانِ طَريقَ الخُروجِ مِن بَطْنِ أُمِّه، وطريقَ الخَيرِ والشَّرِّ.
{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} أي: ثمَّ قَبَض اللهُ رُوحَ الإنسانِ عِندَ انقِضاءِ أجَلِه، وجَعَل له قَبْرًا يُوارَى فيه بَدَنُه؛ إكرامًا له.
{ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ } أي: ثُمَّ إذا شاء اللهُ بَعَثَ الإنسانَ بعْدَ مَوتِه، وأحياه يومَ القيامةِ؛ لِيُجازِيَه على أعمالِه.
{كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ } أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ مِن أنَّه قد أدَّى جميعَ ما أوجَبَ اللهُ عليه؛ فلم يَقُمِ الإنسانُ بكُلِّ ما فَرَض اللهُ عليه؛ من العَمَلِ بطاعتِه، واجتِنابِ مَعصِيَتِه.

<u>الأحكام والفوائد المستنبطة من الآيات:</u>

-لعن الإنسان حيث كفر بالقرآن، وما أظلمه حيث أنكر البعث والنشور.
-خلق الإنسان من ماء مهين وتقدير أطوار حياته من أعظم الأدلة على قدرة الله تعالى على البعث.
-من عرف حقارة خلقته الأولى لم يتكبر على الله تعالى.
-من نعم الله على الإنسان أن جعل له قبرا يوارى فيه إكراما له، ولم يجعله ممّا يلقى على وجه الأرض تأكله الطير والسباع.
-مشروعية دفن الأموات الإنسية تكرمة لهم، سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا، دون أن يطرحوا على وجه الأرض، طعمة للسباع، كسائر الحيوان .
-غلبة التقصير في الواجبات فإن أحدا لا يمكن ن يقضي أوامر الله تعالى ولو صام الدّهر كلّه وصلّى في كلّ لحظة من لحظاته[1]
- في قوله: (إذا شاء) رد لشبهة الكفار الذين كانوا يطلبون تعجيل البعث تحديا وتهكما ليجعلوا عدم الاستجابة بتعجيله دليلا على أنه لا يكون، فأعلمهم الله أنه يقع عند ما يشاء الله وقوعه لا في الوقت الذي يسألونه لأنه موكول إلى حكمة الله [2] .

---
[1] التفسير المنير للزحيلي (30/ 69)، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير (5/ 521) .
[2] التحرير والتنوير (30/ 126) .

المحور الرابع

إقامة البرهان من حال النبات على البعث وإحياءِ الموتى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ [عبس: 24-32]

مناسبة الآيات لما قبلها:

وَكَانَ الِانْتِقَالُ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ بِمَا فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ بَدِيعِ الصُّنْعِ مِنْ دَلَائِلَ قَائِمَةٍ بِنَفْسِهِ فِي آيَةِ: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} [عبس: 18] إِلَى الِاسْتِدْلَالِ بِأَحْوَالٍ مَوْجُودَةٍ فِي بَعْضِ الْكَائِنَاتِ شَدِيدَةِ الْمُلَازَمَةِ لِحَيَاةِ الْإِنْسَانِ تَرْسِيخًا لِلِاسْتِدْلَالِ، وَتَفَنُّنًا فِيهِ، وَتَعْرِيضًا بِالْمِنَّةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِيها .

غريب الألفاظ الواردة في الآيات:

{صببنا} الصب: السكب بسرعة وكثرةٍ. وقيل: الصب: إراقة المائعات من علو[1] .

{شققنا الأرض} أي: صدعناها بالنبات، أو شققنا أجزاءها بعد الريّ[2] .

{حبا} ما كان غذاء للإنسان

{وقضباً}: القضب هو القت الرطب الذي يقضب مرة بعد أخرى تعلف به الدواب، ولهذا سمي قضباً على مصدر قضبه أي قطعه، كأنه لتكرّر قطعه نفس القطع، لأنه يقطع ثم ينمو ثم يقطع وهكذا ما دام يسقى؛ قال الخليل: "القضب: الفصفصة الرطبة فإذا يبست فهي القتّ"، قال ابن عباس: القضب الفصفصة يعني القت" [3] .

وقيل: الرُّطَبُ لأنه يُقْضَبُ من النخلِ، أي: يُقْطَعُ. ورجَّحه بعضُهم بذِكْرِه بعد قوله: «وعِنَباً» وكثيراً ما يَقْتَرنان[4] ..

{وَحَدَآئِقَ}: بساتين واحدها حديقة، قال الكلبي: "وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يحط عليه فليس بحديقة" . وَعَطْفُهَا عَلَى النَّخْلِ مِنْ عَطْفِ الْأَعَمِّ عَلَى الْأَخَصِّ[5].

5- {غلبا} جمع غلباء، يقال: شجرة غلباء، ورجل أغلب بين الغلب إذا كان غليظ الرقبة، وحديقة غلباء: ملتفة ، واغلولب العشب: بلغ والتفّ البعض بالبعض [6] .

6- {فاكهة} والفاكهة : اسم للثمار التي يتناولها الإنسان على سبيل التفكّه والتلذّذ لا على سبيل الاقتيات .

7- {أبا} والأبّ : اسم للكلأ الذي ترعاه الأنعام ، مأخوذ من أبَّ فلان الشيء ، إذا قصده واتّجه نحوه لحاجته إليه ، والكلأ والعشب يتّجه إليه الإنسان بدوابّه للرّعي . قال صاحب الكشاف : "والأب : المرعى ، لأنه يؤبّ ، أي: يؤم وينتجع ... وعن أبي بكر الصديق ﵁ أنه سُئل عن الأبّ فقال : أيّ سماء تظلّني ، وأيّ أرض تقلّني ، إذا قلت في كتاب الله مالا علم لي به . وعن عمر ﵁ أنه قرأ هذه الآية فقال : كلّ هذا قد عرفنا ، فما الأبّ؟ ثم رفع عصا كانت في يده وقال : هذا لعمر الله التكلّف ، وما عليك يا ابن أم عمر أن لا تدرى ما الأبّ؟ ثم قال : اتّبعوا ما تبيّن لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه[7] .

القراءات الواردة في الآيات:

-{ أنا صببنا}، قرأ عاصم وحمزة والكسائي (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ) بفتح الألف . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب (إِنَّا) بكسر الألف .

---

[1] عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (2/ 313) .

[2] تفسير القاسمي = محاسن التأويل (9/ 410)

[3] فتح البيان في مقاصد القرآن (15/ 85)

4 الدر المصون في علوم الكتاب المكنون 10/ 693

5 التحرير والتنوير 30/ 132

[6] تفسير القرطبي (19/ 222)

[7] التفسير الوسيط لطنطاوي (15/ 290)

قال أبو منصور: "من قرأ (إنَّا) فهو استئناف ، ومن قرأ (أنَّا) فعلى البدل من الطعام، ويكون (أنَّا) في موضع خفض؛ لأنه بدل من الطعام، ولَما اتصل به في وسط الكلام صار مفتوحًا، كأنه قال: فَلْينظر الإنسان إلى أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ صبًّا" [1] .

إعراب الآيات:

قوله تعالى **{فلينظر الإنسان}** **(الفاء)** استئنافيّة ، **(اللام)** لام الأمر.

بلاغة الآيات:

الفاء للتفريع{فلينظر} إما مفرعة عن ما أكفره بهذه لبنعم/ أو مفرعة عن قوله {كلا لما يقض ما أمره} من النظر والاستدلال

وهي أيضا الْفَاءُ مَعَ كَوْنِهَا لِلتَّفْرِيعِ تُفِيدُ مَعْنَى الْفَصِيحَةِ، إِذِ التَّقْدِيرُ: إِنْ أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ مَا أَمَرَهُ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَعَامِهِ أَوْ إِنْ أَرَادَ نَقْضَ كُفْرِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَعَامِهِ.

المجاز المرسل في قوله: {غلبا} لأن الغلب صفة للأشجار لا للحدائق، فأطلق ما للحال على المحلّ، علاقته المحلية .

4- الالتفات من الغيبة في قوله{فلينظر الإنسان } إلى الخطاب في قوله {متاعا لكم}[2] .

في قَوْلُهُ:{متاعا لكم وَلِأَنْعامِكُمْ} وَفِيهِ لَفٌّ وَنَشْرٌ مُشَوِّشٌ .

المعنى الإجمالي للآيات[3]:

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ} أي فليتأمل الإنسان كيف خلق الله طعامه الذي يعيش به، ويكون سببا لحياته، وكيف دبره وهيأه له. وفي هذا امتنان بهذه النعمة، واستدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاما بالية. كما قال تعالى :أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ] الواقعة: 63 - 67.[

ثم أوضح كيفية إيجاد الطعام، فقال: {أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا} أننا أنزلنا الماء من السماء أو سحاب على الأرض بغزارة وكثرة، فصب الماء هو المطر، كما قال تعالى :وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا] النبأ: 14.[ثم أسكناه في الأرض، ثم روينا البذر المودع فيها، ثم شققناها بالنبات الخارج منها، فارتفع وظهر على وجهها، فكان هناك أنواع مختلفة من النباتات في الصغر والكبر، والهيئة والشكل، واللون والطعم، والأغراض المتنوعة كالغذاء والدواء والمرعى، لذا ذكر تعالى بعدئذ ثمانية أنواع من النبات بقوله:

- {فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَعِنَباً وَقَضْباً} أي فأنبتنا في الأرض الحبوب التي يتغذى بها كالحنطة والشعير والذرة، والأعناب المتنوعة، والرطبة أو القت أو البرسيم أو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة. والمعنى أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد إلى أن يصير حبا وعنبا وقضبا. وقيل: القضب: العلف.

- {وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً} أي وأنبتنا أيضا شجر الزيتون والنخيل، وثمرتهما معروفة.

- {وَحَدائِقَ غُلْباً، وَفاكِهَةً، وَأَبًّا} أي بساتين ذات أشجار ضخمة ومتكاثفة كثيرة، وفاكهة وهي كل ما يتفكه به من الثمار، أي يستمتع به، كالتفاح والكمثّرى والموز والخوخ والتين ونحوها، وعشبا أو حشيشا مرعى.

{مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} أي: أنبتَ اللهُ ذلك كُلَّه؛ مَنفعةً لكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، تتمَتَّعونَ بها في الحياةِ الدُّنيا كما قال تعالى :وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ] البقرة: 36.[

الأحكام والفوائد المستنبطة من الآيات:

1- أمر الله تعالى بالنظر والاستدلال والتدبر في الطعام الذي نتناوله ونعيش به، كيف دبّر الله أمره، من إنزال الماء من السماء، ثم شق الأرض بالنبات، وإخراج أنواع النبات المختلفة .

---

[1] معاني القراءات للأزهري (3/ 122)

[2] تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (31/ 150)

[3] التفسير المنير - الزحيلي 30/ 71

2- ذكر الله تعالى ثمانية أنواع من النبات: وهي **الحب:** وهو كلّ ما حصد من نحو الحنطة والشعير وغيرهما، وقدّم لأنه كالأصل في الغذاء، **والعنب،** وذكر بعد الحب، لأنه غذاء من وجه وفاكهة من وجه آخر، **والقضب** عند أهل مكة واليمن: وهو الرطبة المسماة بالقت، **والزيتون والنخيل، والحدائق** ذات الأشجار الضخمة الكثيرة، **والفاكهة:** وهي ما يأكله الناس من الثمار، وقد ذكرها مجملة ليعم جميع أنواعها، **والأب:** وهو المرعى الذي يؤبّ أي يؤم وينتجع، وهو ما تأكله البهائم من العشب .
3- الغاية من خلق هذه النباتات: هي الانتفاع بها، سواء بالنسبة للناس أو للدواب لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات[1] .
4- القصد من إيراد هذه الأشياء: ضرب المثل من الله تعالى، لبعث الموتى من قبورهم، والامتنان من الله على عباده بما أنعم به عليهم .
والخلاصة: أن المقصود من هذه الأشياء أمور ثلاثة:
أولها: إيراد الدلائل الدالة على التوحيد .
وثانيها: إيراد الدلائل الدالة على القدرة على المعاد .
وثالثها: الترغيب بالإيمان والطاعة فإنه لا يليق بالعاقل أن يتمرّد عن طاعة الإله الذي أحسن إلى عباده بهذه الأنواع العظيمة من الإحسان .
5- بيان مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته وهي مقتضية للإيمان به وبآياته ورسوله ولقائه .
6- الاستدلال بالصنعة على الصانع، وأن أثر الشيء يدل عليه، ولذا يتعجّب من كفر الكافر بربه وهو خلقه ورزقه وكلأ حياته وحفظ وجوده إلى أجله [2] .

---

[1] التفسير المنير للزحيلي (30/ 72) .
[2] أيسر التفاسير للجزائري (5/ 521) .